اهتف رَدِّد عَليّ الصوت

لُغَة الهتافات وأسلوبها في المَسيرات الشَّعبية

اهتف رَدِّد عَليّ الصوت
لُغَة الهتافات وأسلوبها في المَسيرات الشّعبية

حمزة عقرباوي

إنَ مَعركَـة الإبـادة المَفتوحـة للعـدو تجـاه الفلسـطينين عُمومًـا وأهـل غـزة خُصوصًـا، وحـرب العدو على لبنـان، تَسـتَوجب مُقاوَمَـةً مُتنوّعَـةً أسـلوبًا وَشكلًا، وإنّ الصّمـود المقاومـة الأسـطوري على الأرض، يحتـاج إلـى إسـنادٍ عربـي فاعـل بـكل السّـبل، ومـن ذلـك -بالحـد الأدنـى- الخـروج إلـى الميادين والسّـاحات العامة للتظاهـر والاعتصـام والمشـاركة في المسـيرات، لأن فعـل التظاهـر هـو فعـل إسـناد فاعـل للمقاومـة وعامـل ضغـط على الاحتـلال وداعميـه، وكمـا يقـول المثـل الشـعبي: «الحُقـوق بدهَـا حُلـوق». وكان الشـيخ أحمـد ياسـين -رحمـه الله- قـد نـوّه ذات مَـرَّةٍ لأهميَـة ذلـك حين قـال: (مظاهـرة في القاهرة تُسـاوي عَمليّـةً فدائيـة في تـل أبيـب).

وقـد كان للجماهيـر الشّـعبية في بعـض المـدن الفلسـطينية والعربيـة كلمتهـا الواضحـة خـلال الأشـهر الماضيـة مـن معركـة طوفـان الأقصـى، وذلك في الميادين العامة والشـوارع الرئيسـة وسـاحات الاعتصام، حيث اسـتطاعت هـذه المسـيرات بأوقـات مُتفاوتـة تغييـر المشـهد وتحريـك قضيـة الإسـناد، وكانـت هـذه المظاهـرات رغـم الملاحقـة ومحـاولات التطويـق والضبـط تنجح في إيصـال رسـائلها المباشـرة في دعـم المقاومـة والضغـط على الأنظمـة العربيـة، وتحريـك جمـود الـرأي العالمـي.

في معنى الهتاف وَبُنيَتُه

نَقـولُ في اللغـة: هَتـف يَهتـف هتفًـا أو هتافًـا والفاعِـلُ هَاتِـف، كَقولنـا صَـرَخَ يَصـرُخُ صَرخًـا أو صراخًـا والفاعِـل صَـارخ، ومثلهـا: نـادى يُنـادي نِـداءًا والفاعـل مُنـادي. والأصل في معنـى الهتـافَ: صَـوت الصّيـاح الممـدود، ومِنـه صَـوت صِيـاح الحَمـام الممـدود، وَصـوت الرّيـح الحَنّانـة، وَصـوتُ السّـحاب كَثيـرُ الرّعـد، وَصـوَت القَـوس المرنّـة، ثـمَّ قيـل لِصَـوتِ القَـوم العالـي في الاسَـتنكار وَلِصَـوتِ القَـوم في التّمجيـد وَلِصَـوتِ المُنـادي المرتَفِـعْ: هتـاف.

وإذا قُلنـا هَتَـفَ الرّجـل فَنعنـي بذلـكَ: صَـرخ أو صـاح مـادًّا صَوتَـه، والهَتّـافُ صيغَـة مُبالَغـةٍ، أي الرّجـل كَثيـرُ الهَتـف (الصَيّـاح). وَقـد يُسـمى الهاتِـفُ أيضًـا:

القَـوّالِ، أي الـذي يَنظُـمُ القَـولَ وَيُعلـي الصّـوتَ بـه هتافًـا أو غِنـاءً، والهَتّـافُ أو الهاتِـفُ أو القَـوّال هُـوَ قائِـدُ المسـيرة وَضابـط إيقَـاع مَشـيها وَمَسـيرها، وَعلى عاتِقِـه تَقَـعُ مَسـؤوليّة رَفـع حَماسَـتِها وَشَـجاعَتِها، وَلِـذا يُرفَـعُ علـَى الأكتـاف كـي يعلـو صوتـه وَيصـل للجَميـع.

والهتافـات والصّيحـاتُ في الغالـب لهـا نَمَـطٌ أو قالـبٌ فَنّـي حـاوٍ لهـا، ولـذا تَجدهـا مَسـجوعَةً مَنظومَـةً بشَـكلٍ مُتناسِـقْ، وَلُغَتُهـا شِـعريَّةٌ، كَأنَّ الهتـاف بَيـتُ شِـعرٍ مُكـوّنٌ مِـن شَـطرَتَين (صَـدرٌ وَعجز)، ولهـذه الهتافـات إيقـاعٌ وَجَرَسٌ مُغنّـى كالـرَّدَّةِ الزجلـي، أو هـي نظـمٌ نثـريٌ مُنسَـجمٌ وَمُتناغِـم، وَليـسَ فيهـا نِهايـاتٌ مَقطوشـة وَوقفـاتٌ عالِقَـةٌ تَقطـعُ نَفَـسَ النّـاس أثنـاءَ تَرديدِهـا، وَلأجَـل ذلـك فإنّهـا مَفهومَـةٌ للجُمهـورِ وإن بَـدَت غَيـرَ مُباشِـرَةِ المعنى، وَعلى العُمـوَم فـإنَّ غالبيّـة الهتافـات بَسـيطةٌ وَمِـن السَّـهل حِفظُهـا وَترديدُهَـا.

والـذي نَعرِفُـه عـن الهتافـات إذا سَـمِعنا هَـذِه الكَلِمَـة، أنّـه يُقصَـدُ بهـا: صَـوتُ الجَماهيـرَ العالـي وصياحهـا الصّـارخِ في المظاهَـراتِ والاحتجاجـات بكَلِمـاتٍ مَسـموعَةٍ مَسـجوعَةٍ، تَتـردَّد تَمجيـدًا أو رَفضًـا أو إعلانًـا عَـن مَوقِـفٍ أوَ تَعبيـرًا عَـن رَأيٍ مـا، على أن يكـون ذلـك في الأماكـن المفتوحـة والعامّـة، إذ لا معنـى للهتـافِ والمسـيرة بغيّـر الفَضـاءِ العـام.

- **مضمون الهتاف وشخصية الهاتف**

إنّ مَضمـونَ الهتـاف أسـاسُ قُوَّتِـه وَشُـيوعِه وَسـببُ تَداوُلِـه، وَلِـذا تَجـدُ فَرقًـا في التَّفاعُـل مَـع هتـافٍ دُونَ آخـر، وَالمضمـونُ غالِبًـا مُرتَبـطٌ بالحَـدَثِ وَسـياقِ المظاهَـرة وَطبيعَـةِ المشـاركين، لِـذا يُمكنُنـا قِـراءَةُ مِـزاجِ الجُمهـورِ وَنَفَسُـهُ مِـن التّفاعُـلِ مَـع الهتافـات وَأوقـاتِ هـذه التّفاعُـلاتِ وَسَـياقاتِها.

وتتأثـرُ هـذه الهتافـات بِبَعضِهـا البَعـض، وَتنتَقِـلُ مِـن مَـكانٍ لآخـر، وَتطيـرُ مـن لِسـانٍ قائِـلٍ لأذُنٍ مُسَـتَمِع، ويُبتكـر ويُطـور فيهـا اعتمـادًا على مَهـارَةِ وإبـداعِ الهَتّافِ\القَـوّال، وَليـسَ للهتافـاتِ بالعـادَة جِهَـةٌ أو إطـارٌ يُنتِجُهـا أو يُكثّـفُ رسـالتها، وإنّمَـا تعتَمِـدُ على مَهـارَةِ وَذكاءِ الأفـرادِ المشـاركين في المسـيراتِ والذيـنَ يُصبحـونَ جُـزءًا مِـن المظاهـرات، فَتَنْصَقِـل مهاراتُهـم وَتتطـور مَـع كَثـرَةِ المظاهـرات التـي يُشـاركونَ بهـا، أو يَكـونَ لأحدِهِـم حِـسٌ شِـعريٌ وَنَفَـسٌ زَجلـي فَتـراهُ يُبـدِعُ بالهتـاف علَى السّـليقَةِ مِـن غيـرِ تَكَلّـفٍ أو عَنـاءٍ.

وإنّ شَـخصيّة الهَتّاف\القـوّال وّخلفيَّتَـه الثّقافيّـة وَدافِعَـه الوَطنـي مُهـمٌّ لِفهـمِ رِسـالته ومضمـون هُتافـه، خُصوصًـا إذا كان يَبتَكِـرُ وَيُجـدّد ولا يُعيـدُ

قَـولَ المَألُـوفِ والـدّارج. والشّـخصيّةِ هُنـا مُتّصِلَـةٌ بِصَوتِـه، وارتفـاعُ حِسِّـه وَوضـوحُ كَلماتِـه وَمِقـدار حَماسَـتِه، ثـمّ مَضمـونُ هتافـه المبتكـر ومُحاكاتِـه للواقِـعِ بِـذَكاء. وَأهـمُّ مِـنَ ذلـك صَلابَـةُ شـخصيته وَتحدّيـه للواقِـع، وَجُرأتُـه على القَـولِ دُونَ خَـوفٍ أو تـردد.

- **الهتاف كَوثيقة تؤرخ للمرحلة**

إنّ التّتبـع الدّقيـق لِمَضمـونِ الهتافـات التـي رُددت في مَسـيرات التّضامـن مـع غـزة يجدهـا مُنْبئَـةً عَـن وَثيقَـةٍ باللغَـةِ الأهميّـة تاريخيًّـا، إذْ في هـذه الصيحـات الشّـعبية وَالأقـوال المنظومـة بلحـن مُغنّـى دَلالَـةُ الزّمـان وَتوثيـقُ المـكان، وَذكـرُ لِطبيعَـةِ الأحـداث وَالفِعـل وَالفاعِليّـة، وَيَحضُـرُ فيها الأشـخوص وَالرّمـوز وَالأبطـال، وَهـي مُؤشّـرٌ على حَيـاةِ الجَماهيـر وانتسـابهم لِقَضيّة حَيّة خرجـوا لأجلهـا صارخيـن وَمُعبّريـن عَـن مَشـاعِرهم وَمواقِفِهـم. وَلِأجـلِ ذلـك فـإن تَوثيقهـا على اختلافهـا سـياقًا ومكانًـا، والاهتمـام برصدهـا وتسَجيلها على تنوعهـا يتجـاوز دور التغطيـة الصحفيـة وجهـد الإعـلام.

ومـنِ خـلالِ تجربتـي في توثيـق الهتافـات أجـد أنَّ سِـرّ نجـاح المُظاهـرات خِـلالِ مَعرَكَـةِ طوفـانِ الأقصـى، كان مـا قالتـه الجماهيـر مـن هتافـات بلغيـةٍ عبّـرت عـنِ المشـاعر المكبوتَـةِ حتـى لأولئـك الجالسـين خلـف الشّاشـات، وَقد يَكـونُ أبـرزُ تِلـكَ الهتافـات وأقواهـا مِـا قالتـهُ الجَماهيـرُ الأردنيّـة خِـلال سَـنَةٍ مِـنَ التّضامُـنِ الجـدّي مَـع غَـزّة بـلا كَلَـلٍ أو مَلَـل، حيـث كانـت السّـمة العامـة لهتافـات عّمـان وجماهيـر الأردنَ «الابتـكار والتّجديـد»، في مـا كانـت السِّـمَة العامـة لغيرهـا مـن المظاهـرات «التكـرار والتقليـد».

وَمِـن خِـلالِ رَصـدِ عَشـراتِ المُظاهـراتِ وَتوثيقهـا في أكثـر مِـن مدينـةٍ يُمكننـي القَـولُ بـأنّ المظاهـرات تَميّـزت بِصفـاتٍ جامِعَـةٍ وكان لَهـا جُملَـةٌ مِـن الخِصـالِ المُشـتركة، وَمنهـا مَثـلا:

- الهتـاف في المسـيرات تجـاوز البُعـد التنظيمـي والقبلـي وتجـاوز فكـرة الحُـدود السياسـية، وعبّـر عـن حالة عامة تسـتدعي الالتفاف حولها والتفاعل معهـا، ولـذا يهتـف غيـر المنتمـي سياسـيًا لحـركات المقاومـة ومقاتليهـا وَيمتَـدح قادتهـم، فالهتـاف هُنـا تَعبيـرٌ عـن حَجـم التّفاعـل والحضـور لِبُعـد المقاومـة الـذي تناصـره الجماهيـر، وليـس تعبيـرًا عـن الانتمـاء العضـوي لهـذه القـوى المقاومـة.

- اتخـذت هتافـات طوفـان الأقصـى صِفـةً وحدويـة في أكثـر الأحيـان، وامتزج الدينـي بالوَطنـي في التظاهـرات الحاشـدة، وكانـت صيغـة الهتافـات واضحة في انحيازهـا المطلـق للمقاومـة وَرفضهـا لخيـار السـلام ومسـار التّسـوية

السّياسـيّة.

- منـذ الأيـام الأولـى لمعركـة الطّوفـان أصبـحَ تَقليـدًا أن يَخـرُجَ النّـاسُ في مُظاهَـرات وَخُصوصًـا يَـومَ الجُمعَـة، وَفي الأسـابيع الأولـى مِـن المعركـة كانـت المظاهـرات دائِمَـة بدعـوات مـن التّنظيمـات والقُـوى الفَاعِلَـة، وَخُصوصًـا بَعـدَ صَـلاة العِشـاء قَبـلَ أن يَتـمّ التضييـق علىٰ كَثيـر مِـنَ النّشـطاء، وقبـل أن تُقمَـعَ هـذه المظاهـرات وَيُعتَقَـل بعـض المشـاركيِّن فيهـا.

- عكسـت المظاهـرات التَنـوع في الطّبقـات الاجتماعيـة والفئـات العُمريـة المشـاركة، وإن كانـت غَلَبَـة المشـاركة في المسـيرات للنسـاء، كمـا تقـول الصّـور والفيديوهـات والرصـد الأولـي لهـذه المظاهـرات.

وعليـه؛ سَنسـعى سَـويّة في هـذه السّلسِـلة مـن المقـالات للتعـرف على تطـور لغـة الهتافـات وتجددهـا، وذلـك مـن خـلال مقارنتهـا بمثيلاتهـا المختلفـة زمانًـا ومكانًـا، فالزّمان سـنذهب بـه لأول المظاهرات السياسـية في فلسـطين بدايـة مـن عشـرينات القـرن الماضـي، والمـكان سـيكون المقارنـة بيـن نموذجيـن أساسـيين همـا: مظاهـرات عمـان ورام الله.